أساليب البيان في كتاب "مجاز القرآن"

الدكتورة فتيحة هشماوي

جامعة مستغانم

تمهيد:

لقد عايش **أبو عبيدة معمر بن المثنّى (ت210هـ)** بداية عصر الانفتاح والاختلاط الثّقافي والعرقيّ، مما ولّد صعوبة في فهم أسلوب النصّ القرآني خاصّة في أوساط الأعاجم، وعند رجال الدّولة- ذوي الأصول الأعجميّة - الّذين حاولوا الاقتراب من الحكام بعربيّة مكسّرة، وقريحة لم يستو عودها ولم يستقم.

فعدم التمكّن من العربية-تمكّن السابقين من الصحابة والتابعين-انعكس سلبيا على فهم معاني القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربيّ مبين.

لهذه لأسباب وأخرى ألّف **أبو عبيدة معمر بن المثنّى كتاب "مجاز القرآن"**،الذّي يعتبر **كأوّل** محاولة لرصد الظّواهر اللّغوية في النّص القرآني، ذلك أنه يسلّط الضوء على مختلف قضايا اللغة من نحو وصرف و بلاغة، وقراءات ومعاني الألفاظ ،بأسلوب حاول من خلاله إبراز ملامح اللّغة القرآنية.

لقد احتوى كتاب" **مجاز القرآن** " "**لأبي عبيدة معمر بن المثنّى**" (ت210هـ)على عدّة أساليب لغويّة والتي شكّلت أركان علم البيان لاحقا، بحيث تعتبر من اللّبنات الأولى التي

تأسّس بها علم البيان االعربي، باعتبارها سياقات سلك فيها القرآن سبلا مميزة في التّعبير ومنها نذكر أسلوب المجاز وأسلوب التشبيه وأسلوب الاستعارة وأسلوب الكناية.

1. أسلوب المجاز في "مجاز القرآن":

لقد جاء مصطلح "المجاز" في كتاب "**مجاز القرآن** "**لأبي عبيدة معمر بن المثنّى** عامّا وشاملا لمختلف الظّواهر اللّغوية، بما فيها المجاز الذي عرف عند أهل البلاغة مؤخّرا.

فمن بين أنواع المجاز– التي عرفت عند أهل البلاغة–،وذكرها "أبوعبيدة" في مؤلفه نجد **المجاز العقلي** و كذا **المجاز المرسل**.

فأمّا عن "**المجاز العقلي**" فنجده يشرحه في أثناء تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم، كتفسيره لقوله عز وجل: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾.[1]

يقول أبو عبيدة: "مجازه مجاز مكان العمل والفعل فيه لغيره أي يبصر فيه ألا ترى أنّ البصر إنّما هو في النّهار والنّهار لا يبصر، كما أنّ النّوم في الليل ولا ينام اللّيل فإذا نيم فيه قالوا: ليله قائم ونهاره صائم.[2]

وقال أيضا: "إنّ العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل، والمعنى أنّه مفعول..."[3]

قال جرير:

لَقَد لُمْتِنا يَا أُمَّ غَيلانَ في السُرَى وَنِمتِ وَما لَيلُ المطِيّ بِنائِمِ[4]

فبإسناد البصر إلى الزمن (النهار) جاء المجاز عقليا، لأن النّهار لا يوصف بالإبصار وإنّما يبصر فيه.

ونجد ذلك أيضا في تفسير "أبي عبيدة" لقوله عز وجل: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[5]

يقول في تفسيرها: " مجاز مرضية فخرج مخرج لفظ صفتها، والعرب تفعل ذلك إذا كان من السّبب في شيء يقال: نام ليله وإنما يُنامُ هو فيه[6]

وقال رؤبة:

فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَى هَمِّي[7][8]

وأمّا عن "**المجازات المرسلة** "التّي أشار إليها "أبو عبيدة" في مجازه نجدها في تفسيره لقوله عز وجل: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [9]

يقول أبو عبيدة: " أي بكتبنا وعلاماتنا عن الحق".[10]

فنلاحظ أنّ "أبا عبيدة" قد تنبه إلى أنه ذكر الجزء وهي **الآيات** وأُريد الكلّ —وقد أشار إليه أبو عبيدة– وهي **الكتب** وعلامات الحق، فالعلاقة جزئية.

ونجد **المجاز المرسل** في كتاب "أبي عبيدة " وارد أيضا في شرحه لقوله عز وجل: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾. [11]

حيث نجده يقول:" مجاز "السَّمَاءَ" ها هنا مجاز "المطر"، يقال: مازلنا في سماءٍ، أي في مطر، ومازلنا نطأ السماءَ، أي أثر المطر، وأنّى أخذتكم هذه السماء؟"[12]

فعلاقة المجاز المرسل الّتي بينها أبو عبيدة هنا هي "علاقة محلية" ذلك لأنّه ذكر المحلّ وهو "السّماء" وأُريد الحالّ وهو المطر. [13]

ويدخل كذلك في هذا الباب تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ. ﴾ [14]يقول أبو عبيدة : أهل مجلسيه".[15]

وهذا مجاز مرسل علاقته المحلّية.

ونجده يقول أيضا بالمجاز المرسل في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾[16]مجازها غائرا، والغور مصدر وقد تفعل العرب ذلك. [17]

فالمجاز مرسل علاقته المصدرية.

وبذلك نستطيع أن نقول بأنّ "أبا عبيدة" كان من السبّاقين إلى معرفة هذا اللّون البلاغي وشرح علاقاته التي ينبني عليها، فقد وقف عند بعض الأساليب القرآنية التي عجزت العقول عن إدراك أسرارها وأبعادها الدلالية.

2. أسلوب التّشبيه في "مجاز القرآن":

يعتبر" أبو عبيدة محمد بن المثنى "من السابقين إلى ذكر التّشبيه في مجازه غير أنّنا نجد "الخليل" كان أسبق منه إذ تحدّث عن بعض صور علم البيان ومنها "التشبيه"، كما تحدث تلميذه "سبويه" أيضا عن هذه الصورة البيانية التي اعتبرت من الأركان الأساسية التي ينبني عليها علم البيان، فأشار إلى بعض أدواته وأغفل أخرى، ولمح إلى ركني التشبيه ووجه التّشبيه في أحد أبواب كتابه سماه " باب صار الفاعل فيه بمنزلة الذي فعل في المعنى وما لم يعمل فيه".(18)

غير أننا نجد عدد كبير من الباحثين يعتبرون إسهامات "سبويه" في التشبيه كان ضئيلة الأثر وزهيدة القيمة.

وأمّا عن "أبي عبيدة" فقد كانت (اسهاماته)غير ذلك ، لأن سبب تأليف كتاب "مجاز القرآن" كان بسبب قضية بلاغية والمتمثّلة في "التشبيه".(تفسير التشبيه الوارد في قوله عزّ وجل: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾(19).

فكلمة التشبيه التي وردت في كتاب" مجاز القرآن" جاءت مقترنة تارة بمصطلح "الكناية" وأخرى بمصطلح "التمثيل" أو "المثل"، ففي قوله عزّ وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ (20)

يقول فيها "أبو عبيدة" كناية وتشبيه. (21)

نلاحظ أنّه يقرن التشبيه بالكناية دون أن يشرح ذلك أو يفسره.

أمّا في مصطلح التّمثيل فنجده يذكر في تفسيره لقوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[22]

فيقول أبو عبيدة: "مجاز الآية، مجاز تمثيل، لأنّ ما بنوه على التّقوى أثبت أساسا من البناء الذي بنوه على الكفر والنّفاق، فهو عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ، وهو ما يجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه".[23]

وإذا ما ذكرنا بتعريف التشبيه التمثيلي – عند العلماء والباحثين في مجال البلاغة والمتأخرين عن" أبي عبيدة "بعدّة قرون – فنجدهم يعرفونه بقولهم: "هو نوع من التشبيه لا يكون وجه الشبه فيه شيء مفردا بل يكون مكونا من أجزاء." [24]

فنلاحظ أنّ "أبا عبيدة "قد أشار إليه بالشّرح و ذكره بلفظه الحقيقي المصطلح عليه مؤخرا.

كما نجد لفظ التشبيه عند "أبي عبيدة " ورد في أكثر من موضع ملازما للفظ المثل، ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾[25]

يقول "أبو عبيدة "توضيحا وشرحا لهذه الآية الكريمة "مجازه مجاز المثل والتشبيه، والقواعد الأساس، إذ استأصلوا شيئا قالوا هذا الكلام، وهو مثل، القواعد واحدتها قاعدة: والقاعدة من النساء التي لا تحيض"[26]

فشرح "أبو عبيدة" هذا يقترب ممّا جاء في عرف الدّرس البلاغي وذلك فيما سمي ب "الاستعارة التمثيلية"، حيث شبه الماكرين والذين يحاولون إيقاع الضّرر بالمؤمنين بحال قوم بني بنيانا شامخا فأتاه الله من الأساس.

وأمّا في تفسيره لقوله عزّ وجل: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [27] يقول: مجازه مجاز وموضعه موضع كفوا عمّا أمروا بقوله من الحقّ ولم يؤمنوا به ولم يسلموا، ويقال: ردّ يده في فمه، أي أمسك إذا لم يجب".[28]

وفي نفس السّياق وبنفس الألفاظ يتكلّم "أبو عبيدة "في تفسيره لآيات القرآن الكريمة والتي ورد فيها التّشبيه بأنواعه وخاصّة "تشبيه التّمثيل ".

ففي تفسيره لقوله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[29]

يقول:"مجازه في موضع قولهم: لا تمسك عمّا ينبغي لك أن تبذل من الحق وهو **مثل وتشبيه** [30].

وأمّا في قوله عزّ وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا كَمَثَلِ الَّذِيْ يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ﴾[31]

فيفسّر التّشبيه التّمثيلي الوارد في الآية الكريمة بقوله: "وإنّما الَّذِيْ يَنْعِقُ الرّاعي، ووقع المعنى على المنعوق به وهي الغنم، تقول كالغنم التي لا تسمع التي ينعق بها راعيها، والعرب تريد الشيء فتحوله إلى شيء من سببه، يقولون: أعرض الحوض على النّاقة وإنّما تعرض النّاقة على الحوض، ويقولون هذا القميص لا يقطعني، ويقولون : أدخلت القلنسوة في رأسي، وإنّما أدخلت رأسك في القلنسوة...".[32]

فقد اهتم "أبوعبيدة" بالعلاقة بين الطّرفين دون أن يسمّي ذلك في شرحه لهذه الآية الكريمة.

و من ذلك يمكننا أن نقول بأنّ "أبا عبيدة معمر بن المثنّى" رغم ذكره للتشبيه وإشارته للتّمثيل غير أنّه لم يتوسع في شرح ذلك في كتابه "مجاز القرآن"، لكّن وجدنا له إشارات هامّة في مؤلف آخر له وهو : "**النقائض بين جرير والفرزدق**"، والتي متى جمعت كوّنت النّواة الأولى لهذا الفنّ البلاغي.

حيث نجده يعرض في هذا الكتاب (النقائض بين جرير والفرزدق)، طرفي التّشبيه ووجه الشّبه، بل تجاوز ذلك بالحديث عن المعنى الكامن من وراء التشبيه، ومن ذلك تعليقه على بيت شعري ،قال فيه صاحبه:

فَأَلْقَى عَصَا طلع وَنَعْلاً كَأَنّهَا جَنَاحَ السُمَانَى صَدْرهَا قَدْ تَخَذّمَا.

فقال : "يريد أنّه راع وأنّ سلاحه عصا وشبّه نعله بجناح سمانى في دقّتها وصغرها ، يقول إنه غير تام الخلق. "[33]

وفي قول الفرزدق:

وَأَنْتَ كُلَيْبِي لِكَلْبٍ وَكَلْبَةٍ لَهَا عِنْدَ أَطْنَابِ البُيُوتِ هَرِيرَ.

يقول: يخاطب جريراً ويشبهه في قلّة خيره بالكلب.[34]

كما يقول أيضا (أبو عبيدة) في قول الشاعر:

عُطُونٌ بِأَعْنَاقِ الظِّبَاءِ وَأَشْرَقَتْ مَحَاجِرُهُنَّ الغُرُّ بِالأَعْيُنِ النَّجْلِ.

"وإنما "الضباء" إذ تناولت بأفواهها الغصن إذ طالها فمدت أعناقها إليه، شبه "أعناق"، النّساء بأعناق الظباء في تلك الحال"[35]

فواضح من هذه الأمثلة وتعقيب "أبي عبيدة" عليها أنّ "التشبيه" كان واضح عنده، بما فيه من وجه الشّبه، بل كان"أبو عبيدة" يعرف التشبيه المقيّد بوصف لابد من مراعاته حيث يصح التشبيه عندما يذكر، حيث قال في قول الشاعر:

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جَرْبُ الجِمَالِ بِهَا الكَحِيلُ المِشْعَلُ

"فشبه الرّجال لعظمهم ولون الحديد عليهم بالجمال المهنوءة بالقطران[36]

وفي الختام نستطيع أن نقول أن أبا عبيدة كان على دراية بفن التّشبيه وعلى تمام المعرفة بطرفيه وكذا وجه التّشبيه الذي يجمعهما.

3. أسلوب الاستعارة في "مجاز القرآن":

لاوجود لمصطلح "استعارة" في مجاز القرآن :"لأبي عبيدة"، وأمّا عن معناها فنجده يقترب من المعنى اللغوي الذي يفيد النقل فقط، دون أن يذكر ما تقوم عليه الاستعارة (بمعناها البلاغي الحقيقي) مثلا من تشبيه وما فيها من قرينة تصرف الكلام عن ظاهره وإنما يذكر فقط تفسير الآية وشرحا لمعناها[37] .

كما نلاحظ أنّه قد تحرّج في تخريج بعض الآيات القرآنية لأنّها ارتبطت بالذات الإلهية، و ذلك من مثل قوله عز وجل ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[38] ، وقوله أيضا:﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[39] وغيرها من السّياقات القرآنية المشابهة.

يقول الدكتور "محمد زغلول سلام" : "وكثيرا من الاستعارات والتشبيهات في القرآن الكريم تدخل نطاق الحرج، لأنها تتعلق بالذات أو العقيدة أو بصور البعث، وموقف "أبي عبيدة" من هذا جميعا موقف اللّغويين، يأخذ بظاهر القول إلى أمدٍ محدود، غايته المعنى المجازي القريب، وهو المذهب الذي عرفوا به، ولا مهم عليهم المعتزلة، ولكنه قد يعمد أحيانا إلى التّحلّل من التشبيه، ويدور حول بعض عبارات القرآن الكريم حتى لا تدخله في دائرة الحرج أو التجسيم"[40]

ومن الاستعارات التي أشار إليها "أبو عبيدة" في مجازه، وردت في تفسيره للآيات الكريمة التي جاء فيها التداخل بين عالم الإنسان والحيوان والموات ومثال ذلك: ما جاء في تفسيره لقوله عز وجل: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[41] يقول: "ومن مجازها ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر النّاس".[42]

ومثاله أيضا في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[43] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾[44] (الأصنام)، وقوله عزّوجل: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[45] كل تلك الآيات جاءت على سبيل استعارة مكنية، وقول عز وجل أيضا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[46] وهي كغيرها من الآيات التي سبق ذكرها تحوي

استعارة مكنية التي تبنى على التشخيص يفسرها "أبو عبيدة" بقوله : "هذا من الحيوان الذي خرج مخرج الآدميين والعرب قد تفعل ذلك قال:

شَرِبْت إِذَا مَا الدِّيكُ يَدْعُو صَاحِبَهُ إِذَا مَا بَنُو نَعِيشٍ دَنَوا فَتَصَوَبُوا[47]

ومن **الاستعارات المكنية** والتي أشار إليها "أبو عبيدة" والتي تفهم من خلال تفسيره للآيات القرآنية ما جاء في قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[48] ، يقول "أبو عبيدة" "مجازه، ولا تقلب وجهك ولا تعرض بوجهك في ناحية من الكبر ومنه الصّعر الذي يأخذ الإبل في رؤوسها حتى يلفت أعناقها عن رؤوسها، قال عمرو بن حني التغليبي :

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا.

والصعرَ داء يأخذ البعير في عنقه أو رأسه فيُشَبَّه به الرّجل الذي يتكبر على النّاس".[49]

وأمّا في تفسيره لقوله عز وجل: ﴿أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾[50] يقول أبو عبيدة "ومجاز فَسُقْنَاهُ مجاز فسنسوقه والعرب قد تضع فعلنا في موضع نفعل"، قال الشاعر:

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طارُوا بِها فرحاً مِنِّي، ومَا سمعُوا منْ صَالِحٍ دفنُوا

في موضع "يطيروا" و"يدفنوا"[51]

إذ يبين "أبو عبيدة" أنه قد يستعمل الزمن الماضي مرادا به المستقبل وهذا يدخل في باب **"الاستعارة التبعية"**.[52]

وأمّا الاستعارة في الحرف[53]،فقد مهّد لها في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[54] حيث نجده يقول : "أي على جُذُوعِ النَّخْلِ".[55] فمن خلال كلامه نستشف تلميحه إلى استعارة "في" ل "على " وذلك للدلالة على شدة غيظ فروعن من السحرة لما آمنوا وخذلوه، وهي استعارة تبعية.

وبعد ذلك يمكننا أن نقول أنّ "أبا عبيدة" في تفسيره لآيات الذكر الحكيم لم يذكر لنا الاستعارة بلفظها –الذي جاء عند علماء البلاغة – كما أنه لم ينص عليها كما فعل في التشبيه والتمثيل، وإنما كانت تفهم من سياق كلامه.

4. أسلوب الكناية في "مجاز القرآن":

يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي" في معجمه "العين" في مادة /كنى/ :

كنى فلان يكني عن كذا، وعن اسم كذا، إذ تكلم بغيره مما يبتدل به عليه، نحو الجماع والغائب، والرفث. ونحوه، والكنية للرجل أهل البصرة، يقولون: "بأبي عبد الله وغيرهم يقولون يكنى بعبد الله، وهذا غلط، ألا ترى أنك تقول : يسمى زيدا، ويسمى بزيد، ويكنى "أبا عمرو"، ويكنى "بأبي عمروا"(56)

فتلك الدلالات الكنائية التي أشار إليها الخليل في معجمه لا تختلف عن دلالات الكناية عند البلاغيين المتأخرين، ولعل ذلك من الشواهد الحية على مدى ما أسهم به علماء اللغة في بلورة هذا المفهوم، أمّا "سبويه" فحديثه عن الكناية كان بعيدا عن المعنى الاصطلاحي الذي وضعه البلاغيون بعده.

و هو اللفظ الذي يراد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى، – فلم يتجاوز بفهمه مجرد المعنى اللغوي للكلمة، وهو " الستر والخفاء" حيث يتكلم بشيء وهو يريد غيره، أو كان جاهلا باسم المحدث عنه.(57)

فالمفهوم اللغوي لكلمة "**كناية**" هو الذي كان سائدا آنذاك فالإنكباب على النص القرآني وعلى دراسته من الوجهة اللغوية هو الذي أدى إلى أن يعم هذا المفهوم في أوساط العلماء ومنهم "**أبو عبيدة محمد بن المثنى**" ،الذي استعمل "الكناية" بمعناها اللغوي، أي الخفاء والإضمار وهذا ما ذكره في أكثر من موضع في مؤلفه "مجاز القرآن" .

ففي قوله عز وجل:﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾"(58)

يقول "أبو عبيدة " مفسرا لهذا الآية: "كناية عن حاجة ذي البطن والغائط: الفيح من الأرض المتصوب، وهذا أعظم من الوادي ،اللّماس، النّكاح: لمستم ولامستم أكثر".[59]

وفي تفسير الآية نفسها من سورة أخرى نجده يفسرها بنفس المعنى فيقول في قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾"[60] كناية عن إظهار لفظ قضاء الحاجة من البطن، وكذلك قوله تبارك وتعالى:﴿أَوْلَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ كناية عن الغشيان.[61]

ونجده يقول كذلك في تفسيره لقوله عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾[62] كناية وتشبيه.[63]

أمّا في قوله عز وجل: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[64] يقول في تفسيرها: "يقال جاءني فلان ثاني عطفه أي يتبختر من التكبّر، قال الشماخ:

نُبِّئْتُ أن رُبَيْعاً أن رَعَى إبلاً يُهْدَى إلىَّ خَناه ثَانِيَ الجِيدِ

قال أبو زبيد:

فجاءهُمُ يَسْتنٌّ ثَانِيَ عِطْفَهُ لَهُ غَيَبٌ كأَنَمَا بَاتَ يُمكَرُ"[65]

كما نجد" أبا عبيدة "يستعمل الكناية بمعنى الدليل أو العلامة، وما يشير إلى الشيء، ففي هذا المحور تندرج الكنية، واستعملها أيضا بمعنى الضمير، وهذا كله قريب من الاستعمال اللّغوي- كما أسلفنا الذكر- هذا الاستعمال الذي استخدمه بأكثر من مدلول، فهو يستخدمه تارة بمعنى (الضمير النحوي)، ولعل هذا من أكثر مدلولات المصطلح دوران في الكتاب.

ففي تفسيره لقوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[66] يسمي الضمير " إِيَّاكَ " في الآية الكريمة كناية المفعول .[67]

فقد شمل المعنى الذي أراده" أبو عبيدة" المعنى الاصطلاحي المتعارف عليه عن البلاغيين المتأخرين وفي هذا نجد أحد الباحثين يقول: "...يتضح لنا مفهوم الكناية عند" أبي عبيدة "عام فهو ستر المعنى وراء أيّ لفظ آخر غير اللفظ الأصلي".[68]

ففي تفسيره لقوله عز وجل: ﴿فَظلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[69]

يسمى الضمير المضاف إليه "هم" كناية، وذلك بقوله: "ومن مجازها يحول خبره إلى شيء من سببه، ويترك خبره، قوله عز وجل :﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ حول الخبر إلى كناية في آخر الأعناق"[70]

ويعلق – أبو عبيدة– على هذا فيقول: "وزعم يونس عن أبي عمرو أن خاضعين ليس من صفة الأعناق وإنما هي من صفة الكناية عن القوم التي في آخر الأعناق، فكأنه في التمثيل فظلت أعناق القوم في موضع (هم) والعرب قد تترك الخبر عن الأول وتجعل الخبر للآخر منهما وقال:

طُولَ اللَيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي طَوَيْنَ طُولِي وَطَوَيْنَ عَرْضِي

فترك طول الليالي وحوّل الخبر إلى الليالي فقال أسرعت ثم قال طوين.

وقال جرير :

رَأَتْ مَرَّ السّنينَ أَخَذْنَ مِنِّي كمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلالِ[71]

رجع إلى السنين وترك "مرَّ" ، وقال الفرزدق

تَرَى أَرْبَاقَهُمْ مُتَقلديها إذَا صَدَئَ الحَدِيدُ عَلَى الكُمَاةِ[72]

فلم يجعل الخبر الأرباق ولكنه جعله الذين في آخرها من كنايتهم ولو كان للأرباق لقال: متقلدان، ولكن مجازه: تراهم متقلدين أرباقهم.[73]

وقال في موضع آخر : "مجاز ما جاء من الكنايات في موضع الأسماء بدلا منهن قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾،[74] فمعنى "ما" معنى الإسم، مجازه إن صنيعهم كيدُ ساحرٍ.[75]

فمن خلال الشاهدين الآخرين نرى أن "أبا عبيدة" أراد بالكناية الواقعة في الضمير سواء أكان متصلا أم منفصلا، أو "ما" المصدرية التي تنوب عن الاسم بحيث يمكن تقدير موقعها بضرب من التأويل. (76)

وبهذا فقد ورد مصطلح الكناية بصريح اللفظ عند "أبي عبيدة "وقام بشرحه ضمن تفسيره لآيات من الذكر الحكيم، و جاء في مجمله بمعنى السّتر و الخفاء، فكان بذلك شاملا وعامّا غير محدد، كما هو الحال عند علماء البلاغة.

و في الأخير،ومن خلال تفسير **أبو عبيدة معمر بن المثنّى** للنّص القرآني **و** الوقوف عند أساليبه ومقارنتها بأساليب العرب،يظهر لنا جليّا مدى تأثير النّص القرآني في وضع الأسس الأوّلية **لعلم البيان** خاصّة،و الدّرس البلاغي عامّة.

الهوامش:

1) سورة النمل، الآية 86.
2) أبوعبيدة، مجاز القرآن، عارضه وعلّق عليه محمّد فؤاد سزكين،مؤسّسة الرّسالة،بيروت،لبنان،سنة1393هـ-1973م، ج2، ص 96.
3) المصدر نفسه، ج1، ص 279.
4) ينظر: جرير، ديوانه ، شرح محمد إسماعيل عبد الله الضاوي، مطبعة الضاوي، ط1، القاهرة، سنة 1994م، ص 554.
5) سورة الحاقة، الآية 21.
6) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج2، ص 268.
7) رؤية بن العجاج، ديوانه، اعتنى بتصحيحه وترتيبه، ولم بن الورد البروسي، طبع في مدينة ليبسيغ، برلين، سنة 1903، ص 142..

8) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 279.
9) سورة آل عمران، الآية 11.
10) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 87.
11) سورة الأنعام، الآية 6.
12) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 187.
13) وقد ذهب العلماء والباحثين في تفسير المجاز الوارد في هذه الآية الكريمة مذاهب شتى، ينظر: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، المجاز في اللغة والقرآن الكريم، مكتبة وهبة، ط2، سنة 1428هـ/2007م، ج1، ص 46.
14) سورة العلق، الآية 17.
15) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج2، ص 304.
16) سورة الملك، الآية 30.
17) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج2، ص 262.
18) سبويه، الكتاب،تحقيق عبد السلام هارون،دار الجيل،بيروت،لبنان،سنة1991م، ج1، ص 421-451.
19) سورة الصافات،الآية65.
20) سورة البقرة، الآية 223.
21) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 73.
22) سورة التوبة، الآية 109.
23) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 269.
24) ينظر: فتحي عبد القادر فريد، الفنون البلاغية بين القرآن وكلام العرب،دار اللواء للنشر والتوزيع،الرياض،ط1،سنة1400هـ-1980م، ص 67.
25) سورة النحل، الآية 26.

26) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 539.
27) سورة إبراهيم، الآية 9.
28) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 336.
29) سورة الإسراء، الآية 29.
30) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 375.
31) سورة البقرة، الآية 171.
32) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 63-64.
33) أبو عبيدة معمر بن المثنى، النقائض بين جرير والفرزدق، مج1، دار صادر، بيروت، ط1، سنة 1998، ص 52.
34) المصدر نفسه،مج1، ص 32.
35) المصدرنفسه ، مج1، ص 164.
36) المصدرنفسه ، مج1، ص 164.
37) ينظر: عبد القادر حسين، أثر النحاة في الدرس البلاغي،دار غريب للطباعة والنّشر،لقاهرة،مصر،سنة 1988م، ص 158.
38) سورة المائدة، الآية 64.
39) سورة آل عمران، الآية 28.
40) ينظر: محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع هجري،قدم له محمد خلف الله أحمد،مكتبة الشباب،مصر،ط1،دت، ص 47.
41) سورة يوسف، الآية 04.
42) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 10.
43) سورة فصلت، الآية 11.
44) سورة الأنبياء، الآية 65.

45) سورة الإسراء، الآية 36.
46) سورة النمل، الآية 18.
47) أبو عبيدة ،مجاز القرآن،ج2،ص 93.
48) سورة لقمان، الآية 18.
49) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج2، ص 127.
50) سورة فاطر، الآية 9.
51) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج2، ص 152.
52) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 38-40، السّكاكي، مفتاح العلوم، ص 380.
53) ينظر: العز بن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ص 31-37 .
54) سورة طه، الآية 71.
55) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 23-24
56) الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 70013م، مج4، ص 54. ، ص 23-24.
57) ينظر: عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 122-123.
58) سورة النساء، الآية 43.
59) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 128.
60) سورة المائدة، الآية 06.
61) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 155.
62) سورة البقرة، الآية 223.

63) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 73.
64) سورة الحج، الآية 09.
65) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج2، ص 45-46.
66) سورة الفاتحة، الآية 05.
67) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 24.
68) ينظر: أحمد جمال العمري، المباحث اللغوية في ضوء قضية الإعجاز،مكتبة الخانجي،القاهرة،مصر،سنة 1990م، ص 48.
69) سورة الشعراء، الآية 04.
70) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 12.
71) جرير، ديوانه،ص397 .
72) الفرزدق ، ديوان الفرزدق، دار صادر بيروت لبنان ، دط، مج1، ص 22.
73) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج2، ص83، 84.
74) سورة طه، الآية 69.
75) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص 15.
76) ينظر: كحيل بشير، الكناية في البلاغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، سنة 1425هـ/2004م ص 28.